

الباب الثالث عشر

أخلاق الأثينيين وآدابهم

الفصل الأول

الطفولة

كان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء ، وقد اجتمعت
تحرى الدين ، والملكية ، والدولة ، كلها لمقاومة العقم . فإذا لم يكن للأسرة
أبناء من نسلها كان التبنى هو العادة المتبعة ، وكانت تؤدي مبالغ طائلة
للحصول على الأبناء الأيتام ، لكن القانون والرأى العام كانا في الوقت
نفسه يبيحان قتل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة
النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية تقسيماً يؤدي إلى الفاقة ، فكان في
وسع كل أب أن يعرض طفله للموت بجملة أنه يشك في صحة التنسبه
إليه أو أنه ضعيف أو مشوه . ولما كان يسمح لأبناء الأرحام أن
يعيشوا ، وكانت البنات أكثر تعريضاً للموت من الأولاد ؛ لأن البنت
يجب أن تعد لها بائنة ، ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت اللين وبعوها ومن
خلعتهم إلى خدمة من لم تكن لهم في تربيتها يد . وكانت الوسيلة المتبعة لتعريض
الطفل للموت أن يترك في إناء من الفخار بجوار هيكل أو مكان آخر حيث
يستطاع إنقاذه بعد وقت قليل من تركه إذا رغب أحد في تربيته . وكان حتى
الآباء في تعريض أبنائهم للموت سبباً في غلظة قلوب اليونان ، وكان هو
والانتخاب الطبيعي الصارم عن طريق المنافسة ومعاناة صعاب الحياة ، كان
هذا وذاك من الوسائل التي جعلت اليونان شعباً سليماً قوياً ؛ ويكاد فلاسفة

اليونان يجمعون على تحييد تحديد النسل : فأفلاطون ينادى بتعريض جميع الأطفال الضعفاء ومن يولدون من أبوين منحطين أو طاعنين في السن^(١) إلى الجو القارسي ، وأرسطاطاليس يدافع عن الإجهاض بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يولدوا^(٢). ولم يكن قانون أبقراط الطبي يسمح للطبيب أن يجهض الحامل ، ولكن القابلة اليونانية كانت تحق هذه العملية ، ولا نجد قانوناً يحول بينها وبين^(*) ممارستها^(٣) .

وكان الطفل يقبل في دائرة الأسرة رسمياً في اليوم العاشر بعد مولده أو قبله ، ويقام لذلك احتفال ديني خاص في البيت حول موقد النار ، يتلقى فيه الهدايا ويسمى باسمه . ولم يكن لليوناني عادة إلا اسم واحد مثل سقراط أو أرخيدس ، ولكن كان من عادتهم أن يسموا أكبر الأبناء باسم جده لأبيه ، ولهذا كثير تكرار الأسماء ، واختلط التاريخ اليوناني لكثرة ما ورد فيه من أسماء زونوفون ، وإسكينز ، وتوكيديلز ، وديوجين ، وزينون ، فكانوا يحاولون التغلب على ما فيها من غموض بإضافة اسم الأب أو اسم مسقط الرأس إلى الشخص فيقولون « كيمون ملتياو » أي كيمون بن ملتياوس ، أو ديودورس صقلوس Diodorus Siculus أي ديودور الصقلي ، أو يحلون المشكلة بإضافة أحد ألقاب السخرية المضحكة مثل كليميدون Callimedon أي السرطان .

فإذا ما قبل الشخص في الأسرة بهذه الطريقة لم يكن القانون يجد تعريضه للجو ، بل كان يربي محوطاً بكل ما يحيط به الآباء أبنائهم من العناية في جميع العصور ، فزرى ثمستكليز مثلاً يصف ابنة بأنه حاكم أثينة الحقيقي ، لأنه (ثمستكليز) وهو أعظم رجال أثينة نفوذاً تحكمه زوجته ، وهذه الزوجة يحكمها ولدهما^(٤) . وفي وسعنا أن نستدل على هذا الحب الأبوي من كثير من المقطوعات الشعرية ذات المغزى الأدبي في دواوين الشعراء .

« لقد بكيت حين ماتت ثيونو Theonoe ، ولكن الآمال التي كنت أعلقها

(٥) وليس لدينا شواهد على أن الهونان كانوا يلجأون إلى وسائل لمنع الحمل^(٤) .

على طفلنا خفت أحراني ، ثم آبت الأقدار الحسودة إلا أن تحرمني من هذا الوالد أيضاً ، فواحسرتا ! لقد سُلِّبت مني يا ولدي ، وأنت كل ما كان ياقياً لي من سلوى ؛ ألا فاستمعي يا پرسفوني إلى النداء المنبعث من قلب أب حزين ، وضمي الطفل فوق صدر أمه الميتة^(٧) .

وكانت الألعاب كثيرة تخفف مآسى المراهقة ، وسوف تبقى هذه الألعاب بعد أن ينسى الناس بلاد اليونان ، فترى على وعاء عطر صنع لكى يوضع في قبر طفل ، صورة ولد صغير يأخذ عربته الصغيرة معه إلى الدار الآخرة . وكان للأطفال الرضع خشائش من الطين المحروق في داخلها عدد من الحصى ؛ وكان للنبات دى يحفظن بها في البيت ، وكان الغلمان ينزلون جنوداً وقواداً من الطين في مواقع عظيمة ؛ وكانت المربيات يؤزجن الأطفال على الأراجيح ؛ وكان الأولاد والبنات يدفنون الأطواق ، ويطيرون الطائرات ، ويدبرون الخلدروف الخشبي ، ويلعبون لعبة الاستخفاء أو الغميضاء ، أو شد الحبل ، أو يتبارون في مئات الأنواع من المباريات بالحصى . والبندق ، والنقود والكرات . أما « بلي » العصر الذهبي فكان هو الفول الجاف يدفع بالأصابع أو الحجارة الملساء تطلق مسافات بعيدة أو تقذف في داخل دائرة لتزحزح حجارة العدو من أمامكها وتستقر في أقرب وضع مستطاع إلى مركز الدائرة . فإذا اقترب من الأطفال من « سن العقل » — أي السنة السابعة أو الثامنة من عمرهم — لعبوا لعبة الترد ولذلك برمي الكعاب (Astragali) المربعة ، وتعد أعلى رمية لست كعاب أحسن لعبة^(٨) . ألا إن ألعاب الصغار قديمة قدم خطايا آبائهم .

الفصل الثاني

التعليم

أنشأت أئينة ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية ، وكان لها بعض الإشراف القليل على المدرسين ، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة ، بل ظل التعليم فيها في أيدي الأفراد ونادى أفلاطون بأن تنشئ الدولة مدارس^(١٠) ، ولكن يلوح أن أئينة كانت تعتقد أن المنافسة حتى في التعليم نفسه كفيلة بأن تثمر أحسن الثمرات . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة يرسل إليها أبناء الأحرار في سن السادسة . ولم يكن لفظ بيدجوجوس Paidagogos يطلق عندهم على المعلم ، بل كان يسمى به العبد الذي يصاحب الغلام كل يوم في ذهابه إلى المدرسة والعودة منها ، ولم نسمع قط عن وجود مدارس داخلية . وكان التلميذ يبقى في المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، وإلى ما بعد السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء^(١١) . ولم يكن في المدارس أدراج بل كان يكتب فيها بالمقاعد ؛ فكان التلميذ يضع على ركبتيه الملف الذي يقرأ منه ، أو الصحيفة ، أيا كانت مادتها ، التي يكتب عليها ؛ وكانت بعض المدارس تزدهن بتأثيل لأبطال اليونان وآلهتهم ، وهي عادة انتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً ؛ وكان عدد قليل منها يمتاز بأثاثه الظريف . وكان المدرس يدرس كل المواد ، ويعنى بالأخلاق كما يعنى بالعقول ويستخدم النعال للتأديب^{(*) (١٢)} .

(*) نرى في إحدى الصور المنقوشة على جدران ممهي ، ولعلها منقولة عن صورة يوفانية ، تلميذاً محمولا على كتفي تلميذ آخر ، ويمسكه تلميذ ثالث من عقبه ، والمدرس ينال عليه ضرباً^(١٣).

وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام - الكتابة ، والموسيقى ، والألعاب الرياضية ؛ وأضاف المجددون الحريصون على التجديد في أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير^(١٤) . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب ، وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة ، وكان الكثير من مواد الدراسة يصاغ في عبارات شعرية وموسيقية^(١٥) . ولم يكونوا يضيعون شيئاً من الوقت في تعليم أية لغة أجنبية ، بله اللغات الميتة ، ولكنهم كانوا شديدي العناية بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم في مدارس الألعاب ، ولم يكن أثني يعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع .

أما البنات فكان يدرسن في منازلهن وكان تعليمهن يقتصر في الغالب على علم « تدبير المنزل » ، ولم يكن للبنات في غير اسبارطة حظ من الألعاب الرياضية العامة . وكانت أمهاتهن يعلمنهن القراءة والكتابة والحساب ، والغزل والنسيج والتطريز ، والرقص والغناء ، والعزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليماً عالياً ، ولكنهن في الغالب من المؤنسات ، أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الابتدائية حتى أغرت أسبازيا Aspasia عدداً قليلاً منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . وكان الرجال يتعلمون التعليم العالي على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين ، يلقنونهم فن الخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة والتاريخ . وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية ، وكان يتألف منهم ومن قاعاتهم هذه في أثينة قبل أفلاطون جامعة متفرقة . وكان ذوى الثراء وحدهم هم الذين يتعلمون على أيديهم ، لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً عالية ، ولكن ذوى الطموح من الشبان غير ذوى اليسار كانوا يعملون ليلاً في المصانع أو الحقول حتى يستطيعوا أن يحضروا في النهار دروس هؤلاء المعلمين المتنقلين .

فإذا بلغ الأولاد السادسة عشرة من عمرهم ، كان ينتظر منهم أن يعتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التي تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية ، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه ؛ فقد كانوا يدرّبون على العدو ، والقفز ، والمصارعة ، والصيد ، وسوق المركبات ، وقذف الحراب . وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدءوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية (الطفولة ، والشباب ، والرجولة ، والكهولة ، pais ، epebos ، auer ، Geron) ، وفيها ينخرطون في صفوف شبان أثينة المجندين المعروفة بمنظمات الشباب epeboi^(١٥) . وكانوا في هذه المرحلة يدرّبون مدى عامين على أيدي « مدربين » ، يختارهم لهم زعماء قبائلهم ، على القيام بالواجبات الوطنية والعسكرية . فكانوا يعيشون ويأكلون مجتمعين ، ويلبسون حلالاً رسمية ذات روعة وبهاء ، ويخضعون بالليل والنهار لرقابة خلقية . وكانوا ينظمون أنفسهم تنظيمًا ديمقراطياً على نمط نظام المدينة ، فيجتمعون في جمعية وطنية ، ويصدرون قرارات ، ويسنون قوانين يتقيدون بها ، ويكون لهم منهم حكام ، وزعماء ، وقضاة^(١٦) . وكانوا في السنة الأولى يخضعون لنظام صارم من التدريب الرياضي ، ويتلقون محاضرات في الآداب ، والموسيقى ، والهندسة النظرية ، وعلوم البلاغة^(١٧) . وفي التاسعة عشرة من عمرهم يرسلون لحماية الحدود ويعهد إليهم مدى عامين حماية المدينة من الغزو الخارجي والاضطراب الداخلي . وكانوا في هذه المرحلة يقسمون أمام مجلس الخسائنة ، وأيديهم ممتدة فوق مذبح الهيكل في أرجولوس Argaulos ، يميناً مغلظة هي يمين الشباب الأثيني :

« لن أجلل بالعار الأسلحة المقدسة ، ولن أنحلي عن الرجل الذي إلى جانبي

(٥) ليس في رسمنا مع هذا ترجيح بتاريخ هذه المنظمات إل ما قبل عام ٢٣٦ ق . م

أيا كان ، وسأقدم المعونة إلى طقوس المدينة ، وإلى الواجبات المقدسة ، بمفردى ومع الكثيرين غيرى . ولن تكون بلادى حين أسلمها إلى من يأتى بعدى أقل مما كانت حين تسلمتها ، بل ستكون أكبر وأحسن مما كانت وقتئذ . وسأطبع من يتولون القضاء حيناً بعد حين ، وأخضع للقوانين المسنونة ، ولكل ما يضعه الأهلون من أنظمة ؛ وإذا ما حاول أحد أن يفسد هذه القوانين ، فلن أسمح له بذلك العمل ، بل أدفعه بمفردى وبمعونة الجميع ؛ وسأكرم دين السلف (١٨) .

وكان للشباب مكان خاص فى دار التمثيل ، وكان لهم شأن ظاهر فى مواكب المدينة الدينية ؛ ولعل هؤلاء الشبان هم الذين نرى صورهم الجميلة منقوشة على طنف البارثون يمتطون صهوة الجياد . وكانوا فى أوقات معينة يعرضون ما يتحلون به من صفات فى مباريات عامة ، وبخاصة فى سباق التتابع بالمشاعل من يريه إلى أئينة . وكانت المدينة على بكرة أيها تخرج لمشاهدة هذا المنظر الجميل ، فيصطف أهلها على طول الطريق البالغ أربعة أميال ونصف ميل . ويجرى السباق ليلاً ، والطريق غير مضاء ، فلا يرى الناس من العدائين إلا أنوار المشاعل التى يحملونها وتقفز من يد إلى يد على طول الطريق . وبعد أن يتم تدريب الشباب فى الحادية والعشرين من عمرهم ، يتحررون من سلطان الآباء ، وينتظمون رسمياً فى سلك مواطنة المدينة الكاملة .

هذه هى التربية التى تنشئ المواطن الأئينى ، أساسها الدروس التى تلقاها فى المنزل وفى الطريق . وهى مزيج صالح جميل من التدريب الجسمى ، والعقلى ، يقوى فى الشاب حاسة الجمال ، ويفرض الرقابة فى سن الشباب ، ويعطيه حريته إذا ما نضج . وقد أخرجت فى أحسن عهودها شباناً لا يفوقهم شبان آخرون فى التاريخ كله . فلما انقضى عصر پركليز كثرت النظريات حتى طغت على الناحية العملية فى هذه التربية ، فاحتدم النقاش بين الفلاسفة حول

أهداف التربية ووسائلها ؛ هل يوجه المدارس أكبر هم إلى التربية العقلية أو الخليفة ، وهل يعنى أكبر العناية بتنمية الكفاية العملية ، أو بتعليم العلوم النظرية البحتة . لكنهم مجمعون على أن مكانة التربية هي أسمى مكانة في البلاد ، ولما أن سئل أرسطيس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجموح » ؛ وأجاب أرسطاطاليس عن هذا السؤال نفسه بقوله : « يمتاز به الحى على الميت » ، ويضيف أرسطيس إلى قوله السابق : « حسب التعليم فضلا على التلميذ أنه حين يشهد التمثيل لن يكون حجراً فوق حجر » (١٩) .

الفصل الثالث

المظهر الخارجي

كان مواطنو أثينة في القرن الخامس رجالا متوسطي القامة ، أقوياء البنية ، ملتحمين ؛ ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فدياس في فرسانه . وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم ، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسلانا ذوات وقار ، وهن في التماثيل بارعات الجمال . أما نساء أثينة في حقيقة أمرهن فكن يضارعن في الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا يفقهن قط ، وقد كانت عزلتهن التي تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سببا في نقص نموهن العقلي . واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم ، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكل معانيه ، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال في هذه الناحية ، ولهذا تراهن يزدن طولهن بنعال عالية من القبلين ، ويصلحن ما في أجسامهن من العيوب بالحشايا ، ويضغطن ما زاد فيها بالأربطة ، ويرفعن ثداءهن بحاملات من القماش(*) (٢٠)

وشعر اليونان أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب . وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبهن هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن ، وكان بعض الرجال يحدون حدوهن في هذا (٢٢) . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يدهنون رؤوسهم بالزيت ، يستعينون به على نماء شعرهم ووقايته من تأثير الشمس ؛ وكانت النساء يخلطن الزيت ببعض العطور

(*) يقص فلرطرخس قصة طريفة يقول فيها إن موجة من الانتحار سرت بين نساء ميليطس ، ولكن هذه الموجة قضى عليها قضاء تاما فجائيا أمر أصدرته الحكومة يقضى بأن تحمل من تتحدر عارية الجسم إلى قبرها مارة بالسوق العامة (٢١) .

ويقلدهن في ذلك بعض الرجال (٢٣) . وكانوا جميعاً رجالاً ونساء في القرن السادس قبل الميلاد يطيلون شعرهم ويجدلونه غداً حول الرأس أو خلفها ، فلما كان القرن الخامس أخذت النساء يصففن شعرهن ويعقصنه وراء رقابهن ، أو يتركه ينوس على أكتافهن ، أو يطوينه حول الأعناق وفوق الصدور . وكان النساء يجبن ربط شعرهن بأشرطة رمادية اللون تزدان بجوهرة فوق الجبهة (٢٤) ثم أخذ الرجال بعد مرثون يقصون شعرهم ، كما أخذوا بعد الإسكندر يحلقون شواربهم ولحاهم بأمواس من الحديد على شكل المنجل . ولم يكن اليوناني يطيل شاربه من غير أن يطيل لحيته ، وكان يعنى بتسوية لحيته حتى تنتهى عادة بطرف رفيع . ولم يكن عمل الحلاق مقصوراً على قص الشعر أو حلق اللحية أو تسويتها ، بل كان يعنى إلى ذلك بتدريج الأظافر وتجميل من يتقدمه إليه في أعين الناس ، وكان إذا فرغ من عمله قدم إليه امرأة كما يفعل الحلاقون في هذه الأيام (٢٥) . وكان للحلاق جانوته ، وكان هذا الحانوت « مجعماً لغير الخمورين » (كما يسميهم ثيوفراسطس) يتناقلون فيه أخبار الناس ومعايهم ، ولكنه كان في كثير من الأحيان يقوم بعمله خارج حانوته في العراء . وكان الحلاق ثرثاراً بحكم مهنته ، ويروى أن حلاقاً سأل الملك أركلوس كيف يجب أن يقص شعره فأجابه الملك « في صمت » (٢٦) . وكانت النساء أيضاً يحلقن الشعر من بعض أجزاء جسمهن ، ويستخدمن في هذا أمواساً أو أدهانا مصنوعة من الزرنيخ والحير .

وكانت العطور - المصنوعة من الأزهار مخلوطة بالزيت - تعد بالمئات ، ويشكو سقراط من كثرة استعمال الرجال لهذه العقاقير (٢٧) . وكان لكل سيدة راقية عدة كبيرة من المرايا ، والدبابيس العادية والإنجليزية ، ودبابيس الشعر ، والملاقط ، والأمشاط ، وقنينات العطور ، وأواني الأصباغ الحمراء ؛

والأدهان . وكن يصبفن خلودهن ، وشفاههن بعضى من السلقون وجلنور الشنجان (*) . أما الحواجب فكانت تصبغ بسناج المصابيح أو بمسحوق الإثمد ، وتلون الجفون بالإثمد ، وتسود الرموش ثم تطلّى بمزيج من زلال البيض والأشقى (**). وكانت الأدهان ومحاليل الغسل تستخدم لإزالة التجاعيد والشمس والبقع من الوجه والجسم ، وكانت بعض الأدهان المولدة تبقى على الجسم ساعات طويلا لكي تظهر المرأة في أعين الناس جميلة إن لم تكن جميلة بطبيعتها . وكان زيت المصطكى يستخدم لمنع العرق ، وكانت مراهم معطرة خاصة توضع على أجزاء مختلفة من الجسم . وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبيها وشعرها بالبردقوش ، وعنقها ، وركبتها بخلصة الصعتر ؛ وذراعيها بخلصة النعناع ، وساقها وقداميها بالمُر (٢٨) . وكان الرجال يحتجون على هذه الأسلحة المغرية ، ولكن احتجاجهم لم يكن له من النتائج أكثر من احتجاج أمثالهم في أى عصر من العصور . من ذلك أن إحدى الشخصيات في مسلاة أثينية تعبر سيدة بتعداد ما تستخدمه من الأدهان والأصبغ الكثيرة فتقول : « إذا خرجت في الصيف تحلر من عينيك خطان أسودان ، وجرى نهر أحمر من خديك إلى عتقك . وإذا مس شعرك وجهك أبيض من الرصاص الأبيض (٢٩) . إن النساء كما هن لأن الرجال لا يتغيرون .

وكانت المياه قليلة فكانت النظافة تتطلب وسائل أخرى غير المياه ، فأما الأغنياء فكانوا يستحمون مرة أو مرتين في اليوم ، ويستخدمون في استحمامهم صابونا مصنوعا من زيت الزيتون معجونا بمادة قلوية ، ثم يتعطرون .

(*) الشنجان بالكسر معرب شكار وهو نفس الحمار ويسمى الكحلأ ، والحميراء ، ورجل الخدامة ، وهو نبات لاصق بالأرض مشوك له أصل في غلظ إصبع ، أحمر كالدّم يصبغ اليد إذا مس ، وينبت الأرض الطيبة التربة (المحيط) ، واسمه بالإنجليزية alkanet . (المترجم)

(***) الأشقى كسكر ويقال : وشق وأشج صبغ نبات كالتناء شكلا gum Ammoniac عن المحيط . (المترجم)

وكان البيت الرأقي يشتمل على حمام مبلط ، به حوض كبير من الرخام يحمل إليه الماء عادة باليد ، وكانت المياه أحيانا تنقل في أنابيب وقنوات إلى البيت محترقة جدران الحمام ، ثم تندفع من صنوبر معدني في صورة رأس حيوان ، وتسقط على أرض الحمام الرشاش وتجري بعدئذ إلى الحديقة (٣٠) .

وأما الكثيرون من الأهليين الذين لا تتوافر لديهم المياه للاستحمام فكانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ثم يزيلونه بمكشط هلالى الشكل كما نرى ذلك في تمثال أپوكسيمونس Apoxyomeoni للمثال ليسبس Lysippus ولم يكن اليوناني شديد الحرص على النظافة ، ولم تكن أهم وسائله للمحافظة على صحته هى العناية بها داخل المنزل ، بل كان أهمها الاقتصاد فى الأكل والحياة الخارجية النشيطة . وكان يندر أن يجلس داخل الدور والملاهى والمعابد والأبواب المغلقة الأبواب ، وقلما كان يعمل فى المصانع أو الحوانيت المغلقة . وكانت مسرحياته وعبادته ، وحتى حكومته فى ضوء الشمس ، وكان فى وسعه أن يخلع عن جسمه ملابسه البسيطة التى يصل منها الهواء إلى جميع أجزائه ، ولا يكلفه نخلها أكثر من التلويح بذراعه ، للقيام بجولة مصارعة ، أو التمتع بهمام شمس .

وكانت ملابس اليوناني تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين فى غير إحكام حول الجسم ، وقلما كانتا تفصلان لتوائما لابساً بعينه . وكانتا تختلفان فى بعض تفاصيلهما الصغرى فى المدن المختلفة ، ولكنهما ظلتا بحالهما عدة أجيال . وكان أهم رداء لرجال فى أثينة هو القباء Tuuic ، وأهمه للنساء هو المنزر peplos ، المصنوعين من الصوف . فإذا كان الجو يتطلب التدفئة غطيا بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدلى فى غير كلفة فى تلك الثنايا الطبيعية التى تسر العين حين تقع عليها فى الثمايل اليونانية . وكانت الملابس فى القرن الخامس بيضاء اللون فى العادة ، غير أن النساء ، وأغنياء من الرجال ، والشبان المتأقنين ، كانوا يعمدون إلى تلوينها ، ولم يكونوا يستنكفون من لبس الثياب القرمزية أو الحمراء الداكنة ، أو ذات الخطوط

المختلفة الألوان والحواشي المطرزة . وكانت النساء في بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة . ولم تكن القبعات مرغوباً فيها لأنها كانت في رأيهم تمنع رطوبة الجوع عن الشعر فيشيب قبل الأوان^(٣١) ، ولم يكن الرأس يغطى إلا في أثناء السفر ، والقتال ، أو العمل في أشعة الشمس الحارة . وكانت النساء في بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل أو عصابات ملونة ، وكان العمال في بعض الأوقات يغطون رؤوسهم بقلنسوات ويتركون سائر الجسم عارياً^(٣٢) . أما الأحذية فكانت أخفافاً (صنادل) ، ونغلا طويلة أو قصيرة تصنع عادة من الجلد ، سوداء اللون للرجال وملونة للنساء . ويقول دسياركس Dicaerchus إن نساء طيبة يحنذين أحذية قصيرة أرجوانية ذات شرائط تظهر منها القدم العارية^(٣٣) . وكان معظم الأطفال والعمال لا يحنذون شيئاً مطلقاً ، ولم يكن أحد يعنى بلبس الجوارب^(٣٤) .

وكان الأهلون ، رجالاً ونساء ، يخفون دخلهم أو يعلنونه للناس بالحلى والجواهر ، فكان الرجل يلبس عدة خواتم^(٣٥) . وكانت عصي الرجال تنتهى في أعلاها بكریات من الفضة أو الذهب . وكانت النساء يتملحن بالأساور ، والقلائد والأكالييل من الجواهر ، والأقراط ، ودبابيس الصدر ، والعقود ، والمشابك ذات الجواهر ؛ وكان هن في بعض الأحيان أربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن . وكانت الطبقات التي تنرف في الترف في هذه البلاد هي الحديثة الثراء كما تفعل أمثالها في جميع البلاد التي تسودها الثقافات التجارية . وكانت اسبارطه تحدد أنواع أغطية الرأس لنسائها ، كما كانت أثينة تحرم على النساء أن يأخذن معهن في أسفارهن أكثر من ثلاث مجموعات من الثياب^(٣٦) . غير أن النساء كن يسخرن من هذه القيود ، ويتهربن منها دون أن يستعن على ذلك الهرب بالحامين . ذلك أنهم كن يعرفن أن قيمة المرأة عند معظم الرجال وعند النساء إنما تقدر بملابسها ؛ وكان مسلكهن في هذه الناحية يكشف عن حكمة تجمعت هن في خلال آلاف من القرون الطوال .

الفصل الرابع

المبادئ الأخلاقية

لم يكن الأثينيون في القرن الخامس مثلاً طيباً في حسن الخلق ، وذلك لأن ارتفاع عقولهم قد أحل الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية ، وجعل منهم أفراداً يكادون يكونون لا خلاق لهم . نعم إنهم قد اشتهروا بعلمهم القضائي ، ولكننا قلنا نراهم يوثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم ، وقلما يشعرون بوخز الضمير ، أو يفكرون قط في أن يجربوا جيرانهم كما يجربون أنفسهم . وتختلف آدابهم باختلاف طبقاتهم ، ففي محاورات أفلاطون نرى الحياة تجملها للرقعة الخلابة أما في ملاهي أرسطوفان فالآداب لا وجود لها قط ، وفي الخطب العامة نرى السباب الشخصي هو روح البلاغة . ولقد كان « البرابرة » الذين هذبهم الدهر في مصر وفارس وبابل أرقى من اليونان كثيراً في هذه الناحية . وكانت التحيات عند الالتقاء ودية قلبية ولكنها بسيطة ، فلم يكن فيها المنحنيات لأن هذا كان يبدو للمواطنين بقية من بقايا الملكية البائدة . وكان السلام باليد مقصوراً على الحلف أو الوداع ؛ أما التحية العادية فلم تكن تزيد على قولهم « ابتهج » (Chaire) تتبعها كما تتبعها عند غيرهم إشارة طريقة إلى الجوع (٢٧) .

وقل لإكرام الضيوف بعد أيام هومر لأن الأسفار أصبحت آمن بعض الشيء مما كانت في ذلك الوقت ، ولأن النزول كانت تقدم الطعام والمأوى للمسافرين ؛ غير أن كرم الضيافة ظل مع ذلك من فضائل الأثينيين البارزة . وكانوا يرحبون بالغرباء ولو لم يقدمهم إليهم أحد ؛ فإذا جاء الغريب بخطاب من صديق له ولئن جاء إليه ، قدم له الطعام والمأوى ، وربما قدمت له عند رحيله بعض الهدايا . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصحب

معهُ ضيفاً غير مدعو . وكانت حرية الدخول إلى منازل الغير سبباً في قيام طائفة من الطفيليين على مر الأيام . وكانت الكلمة المستعملة في هذا المعنى paraisitoi تطلق في الأصل على الكهنة الذين يأكلون « الحب الباقي » من مقررات المعابد . وكان الأغنياء أسخياء في عطائهم الخاص والعام . وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة اليونان فعلاً واسماً ، واللفظ الذي يطلق عليها philanthropy من أصل يوناني . وكان التصدق - Charitas أى الحب - من طباعهم ، وكان لديهم هيئات للعناية بالغرباء والمرضى ، والفقراء ، والطاعنين في السن (٣٨) . وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود وتربي أيتام الحرب على نفقة الدولة ؛ ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل (٣٩) . وكانت الدولة تدفع في أوقات الجذب والحرب ، وغيرهما من الأزمات إعانة يومية قدرها أبولتان (١٠٠٠ من الريال الأمريكي) للمحتاجين ، تضاف إلى ما كانت تعطيه كلا منهم لحضور جلسات الجمعية ، والحاكم ، ومشاهدة التمثيل . ولم تكن هذه الإعانات تخلو من الفضائح المعتادة ، فها هو ذا لسياس يذكر في خطبة له رجلاً يتقاضى إعانة من الأموال العامة ، مع أن له أصدقاء من الأغنياء ، ويكسب مالا من عمله اليدوي ، ويركب الخيل للرياضة (٤٠) .

ولعلك كنت إذا سألت اليوناني قال لك : إن الأمانة أحسن سياسة ، ولكنه كان في حياته العملية يجرب كل الوسائل الأخرى أولاً . فترى المغنين في مسرحية فلكتيتس Philoctetes لسفكل يظهرهم - أعظم العطف على الجندی الجريح الذي تخلى عنه رفقاؤه ، ثم ينتهزون فرصة غفوته فيشيرون على نيوبتلموس Neoptolemus أن يغدر به ويسرق سلاحه ، ويتركه بعدئذ لمصيره . وكان كل الناس يشكون من أن بائع الأشبات الأثيني يغش بضاعته ، وينخر الكيل والميزان ، وينقص ما بقي للمشتري من نقود على الرغم

من مفتشى الحكومة ، ويحول مرتكز الميزان نحو الكفة التي بها الموزون^(٤٠) ، ا ،
ويكذب كلما سنحت له الفرصة ؛ وهو متهم بأخذ الودم^(*) من الكلاب^(٤١) .
ويطلق كاتب مسرحى هزلى على بائعى السمك اسم « السفاحين » ويسميه
كاتب أرحم بهم منه « لصوصا »^(٤٢) . ولم يكن رجل السياسة خيرا من
هؤلاء كثيراً ؛ فلا نكاد نرى رجلا ذا شأن فى الحياة الأثينية العامة لم يتهم
بالالتواء^(٤٣) ، وإذا وجد فيهم رجل شريف مثل أرسطيدز عد من خوارق
الطبيعة يكاد يبلغ حد البشاعة ، وحتى ديوجين نفسه بمصباحه الذى يسير به
فى النهار يعجز عن أن يعثر على رجل آخر شريف . ويقول توكيديديز إن
الرجال كانوا أكثر حرصاً على أن يوصفوا بالخلق من أن يوصفوا بالأمانة ،
ويظنون أن الأمانة هى السذاجة^(٤٤) . وكان من أسر الأمور أن تجد اليونان
يخونون وطنهم . وفى ذلك يقول هوزنياس : « لم يكن يتقص بلاد اليونان فى
أى وقت من الأوقات رجال مصابون بهذا الداء داء الخيانة^(٤٥) » . وكانت
الرشوة هى السبيل المألوفة للرقى ، ولفرار المحرمين من العقاب ، ولنيل المطالب
الدبلوماسية . وحصل بركليز على مبالغ طائلة من المال للخدمات السرية ،
وأكبر الظن أنه استخدمها لتيسير أسباب المفاوضات الدولية . وكانت المبادئ
الأخلاقية قبلية الطابع إلى أقصى حد ، وينصح زنوفون فى رساله له فى
التربية بالالتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة فى معاملة أعداء البلاد^(٤٦) ..
ويدافع الرسل الأثينيون الذين وفدوا إلى اسپارطة فى عام ٤٣٢ عن
إمبراطوريتهم بتلك العبارات الصريحة : « لقد كان القانون السائد على
الدوام أن يخضع القوى للضعيف . . . ولم يسمح أحد بأن تقف المطالبة
بالعدالة فى سبيل المطامع إذا لاحت للتخلص فرصة كسب شىء ما قوة

(*) الودم الحزة من الكرش والمصارين المقطومة تمعد وتلوى ثم ترمى فى انقدر والجمع
أودم وودوم ، وهى الودمة وجمها وذام . (المخصص) . وقد استعملنا هذا « اللفظ »
(لسبق) . (المترجم) .

واقترأ^(٤٧) . ولا يبعد أن تكون هذه الفقرة هي وخطب الزعماء الأثينيين في ميلوس^(٤٨) من خيال توكيديدز الفيلسوف أثارتها أقوال بعض السوفسطائيين الساخرة ؛ ومن أجل هذا فإن الحكم على اليونان من أخلاق جورجياس ، وكلكليز Gallicles ، وثراسيماكوس Thrasymachus التي تخالف العرف المألوف لا يكون فيه من العدالة أكثر مما في وصف الأوربيين المحدثين بالاستناد إلى أقوال مكيفلي ، ورشفوكول ، ومنتشة ، واسترنر Stirner الشاذة الغربية .

ولسنا نحب أن نقول ماذا في هذا الحكم من عدالة . ومما يدل على أن اليونان يروون أنهم أرقى من أن يتقيدوا بهذه القيود الأخلاقية أن الاسبارطيين لا يترددون في موافقة الأثينيين على هذه الطائفة من نقط الحلاف الأخلاقية . ولما أن استولى فويداس Phoebidas اللسديموني على قلعة طيبة غدراً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبين ، وسئل أجسلوس Agesilus ملك اسبارطة عما في هذا العمل من العدالة أجاب بقوله : « ليس لك إلا أن تسأل هل هو نافع أو غير نافع ، لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح » . وكثيراً ما كانت تحرق شروط الهدنة ، وتنقض العهود الصريحة ، وتقتل الوفود^(٤٩) . على أننا نعود فنقول : إن اليونان قد لا يختلفون عنا إلا في صراحتهم لا في مسلكتهم ، ذلك أن تفوقنا عنهم في الرقة يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما تفعل .

ولم يكن للعادة والدين إلا أثر قليل في كبح جماح المتصرين في الحرب . لقد كان من الأمور المألوفة ، حتى الحروب الأهلية ، أن تهب المدن المفتوحة ، وأن يقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يقبض عليهم من غير المحاربين ، أو أن يتخذوا عبيداً إذا لم يقتلوا ، وأن تحرق البيوت ، وأشجار الفاكهة ، والمحصولات الزراعية ، وأن تباد الحيوانات ، وتلف البنور لكيلا تزرع في المستقبل^(٥٠) . وقد ذبح الاسبارطيون في بداية حرب البلوبونيز كل من وجسوم من اليونان في البحر

وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينة أو من المحايدين (٥١) ، وقتل الاسبارطيون في معركة إيجسبوتامى Aegospotami التي انتهت بها هذه الحرب ، ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين (٥٢) - ويكاد هؤلاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . وكانت الحرب من نوع ما - حرب مدينة ضد مدينة ، أو طبقة ضد طبقة - هي الحالة المألوفة العادية في بلاد اليونان . وعلى هذا النحو أخذت هذه البلاد التي هزمت ملك الملوك يقاتل بعضها بعضاً ، فيلقى اليوناني في ألف موقعة ، ولم يكذب بمضحي قرن واحد على معركة مرثون حتى أخذت الحصار اليونانية ، وهي أزهى حضارات التاريخ على الإطلاق ، تفتى نفسها بهذا الانتحار القوي الطويل الأمد :

الفصل الخامس

الطباع

إذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يخلبون عقولنا ويستدرون عطفنا ، فما ذلك إلا لأنهم يسترّون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما طبعوا عليه من قوة المغامرة والذكاء التي تبعث الهجة في النفوس . لقد كان قرب البحر من الأثينيين ، وما أتاحه لهم هذا القرب من فرص تجارية نادرة ، وحرصهم على الحرية في حياتهم الاقتصادية والسياسية ، مما جعل الأثيني إنساناً مرناً العقل والطبع ، سريع التهيّج والحساسية إلى أقصى حد . ألا ما أعظم ما يبيّنه الإنسان من تغير الطباع حين ينتقل من الشرق إلى أوروبا ، فهو ينتقل من الأصقاع الجنوبية الوسنانية إلى أقاليم وسطى في شتائها من البرودة ما يكفي لبعث النشاط دون ركود ، وفي صيفها من الدفء ما يطلق القوى دون أن يضعف الجسم والروح . هنا يكون الإيمان بالحياة وبالإنسان ، والتحمس للحياة تحمساً لا نجد له نظيراً قبل عصر النهضة .

من هذا الوسط المنبه المنشط تبعث الشجاعة وتنبعث الثورة العاطفية البعيدة كل البعد عن فضيلة ضبط النفس (Saphrosyne) التي يدعو إليها الفلاسفة دون جدوى ، وعن الرصانة التي يعزوها الشاب ونكلمان Winckelmann والشيخ جوته إلى اليونان العاطفين القلقين . ليست المثل العليا لأية أمة من الأمم عادة إلا ستاراً يخفى عن الأعين الفاحصة حقيقة أمرها ، ولذلك فإن الواجب يقضى بالألا تعد من الحقائق التاريخية . إن الشجاعة والاعتدال - أو الرجولة (Andreia) وعدم الإفراط في شيء ما (Meden agan) إذا شئت الألفاظ التي نقشت على جدران معبد دلفي - شعار اليوناني ؛ وهو يحقق أولها في كثير



(شكل ٢٨) نيكى تربط حزامها
من هيكل نيكى أپروس ، في متحف الأكروبول بأثينة

(٨ - ج ٢ - مجلد)

من الأحوال أما ثانيهما فلا يحققه من اليونان إلا الفلاحون ، والفلاسفة ،
والقديسون . أما الأثيني العادى فهو رجل شهوانى ولكنه رجل ذو ضمير
حى ، ولا يرى خطيئة فى ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للشاؤم
الذى يخيم عليه فى فترات تفكيره ، وهو مغرم بالخمر ولا يستحى أن يسكر
منها بين الفينة والفينة ، ويجب النساء حباً جنائياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما ،
ولا يجد حرجاً فى أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنىسى
الشاذ ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها . ولكنه
رغم هذا يخفف الخمر بإضافة ثلاثة أقداح من الماء لكل قلعين منها ، ويرى
أن تكرار السكر مخالف لمقتضيات اللوق السليم ، وهو يعظم الاعتدال بل
يعبده مخلصاً فى عبادته إياه ، ولكنه قلما يسر عليه فى حياته العملية ،
ويصوغ مبدأ السيطرة على النفس صياغة لا تجارها فى الوضوح صياغة أى
شعب آخر فى التاريخ لهذا المبدأ السامى .

إن الأثينيين أذكى من أن يكونوا صالحين ويسخرون من البلاء أكثر
 مما يمتقون الرذيلة ، وليسوا كلهم حكماء ؛ وليس لنا أن نتصور أن نساءهم
كلهن حسان مثل نسكا Nausica ، أو أن فهن من أسباب الحلال ما فى هلن ،
كما لا يحق لنا أن نتصور أن رجالهم يجمعون بين شجاعة أجاكس وحكمة
نسطور : لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان وغفل عن ذكر بلهاتهم
(عدا نيشياس Nicias) ؛ وقد يبدو عصرنا نفسه عظيماً حين ينسى معظمنا ؛
ولا ينجوا من هذا النسيان إلا الشوامخ منا . وإذا أخرجنا . من حسابنا ما بيعته
قدم العهد فى القلوب من عطف وحنان على الأقدمين ، بقى أن نقول إن
الأثينى العادى لا يقل دهاء عن الشرقى ، ولا يقل شغفاً بالحدة عن
الأمريكى ، مثبوف طلعة على البوام ، لا ينقطع عن الحركة والانتقال ،
ولا ينفك ينادى بالهدوء البرميندى(*) ، ولكنه مضطرب مهتاج مثل
هرقليطس . ولم يكن لشعب قبل الأثينيين ما كان لهم من قوة الخيال أو

(*) نسبة إلى الفيلسوف برميندىس الإيلى (للقرن السادس قبل الميلاد) . (المترجم)

فصاحة اللسان ؛ ولقد كان التفكير الواضح والتعبير الخالي من الغموض يبدوان للأثيني من الصفات القدسية ، فلم يكن يطبق التشويش والارتباك العلمى ، ويرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرقى متع الحضارة . ولقد كان سبب ما امتاز به التفكير وما امتازت به الحياصة من غزارة وقوة ، أن اليونانى كان يرى أن الإنسان هو المقياس الذى تقدر به الأشياء جميعها ؛ فالأثيني المتعلم يعشق العقل ، وقلما كان يشك فى قدرته على إدراك العالم وتصويره ؛ وكان حب المعرفة والرغبة فى الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتهاته ؛ وكان شغفه بهما شغفاً مسرفاً قوياً كشفه بغيرهما . ولقد كشف فيما بعد أن للعقل الإنسانى والجهود البشرية حدوداً يقفان عندها ولا يتخطيانها ، وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل المترتب على هذا للكشف أن تنتابه حالة من التشاؤم عجيبة لا تتفق قط مع بهجته ومرحه ، وحتى فى العصر الذى بلغ فيه إنتاجه الفكرى غايته ، كانت آراء أعمق مفكره - وهم كتاب المسرحيات لا الفلاسفة - تشوبها عقيدته بغي أن بهجة الحياة خلداعة قصيرة الأجل ، وأن الموت رابض له متربص به .

وكانت روح البحث هى التى أنشأت علوم اليونان ، كما كان الحرص على الاستحواذ منشأ حياتهم الاقتصادية والعامل المسيطر عليها . وفى هذا المعنى الأخير يقول أفلاطون مبالغاً كعادة علماء الأخلاق : « إن حب الثراء يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال ، فلا يفكرون إلا فى أملاكهم الخاصة ، التى تتعلق بها نفس كل مواطن » (٥٣) . فالأثينيون فى حقيقة أمرهم حيوانات متنافسة ، وبهذه المنافسة القاتلة التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، يحفز بعضهم هم بعض . وهم على جانب كبير من الذكاء ، ولا يقلون دهاء واحتيالاً عن الساميين ، وهم صلاب الرأى صلابة العبرانيين كما وصفهم التوراة ، وهم مثلهم مشاكسون ، معاندون ، متكبرون ، كثيرو اللجاج والمساومة

في البيع والشراء ، لا يتركون نقطة في حديثهم من غير جدل ومناقشة ، إذا عجزوا عن محاربة غيرهم من الأمم تحاربوا فيما بينهم . وليسوا على جانب كبير من رقة العواطف ، يعيرون على يوربديز دموعه في مسرحياته ، يشفقون على الحيوان ويقسون على الإنسان : فهم يعذبون العبيد دون ذنب ، ويخيل إلى من براهم أنهم ينامون ملء جفونهم بعد أن يلجحوا جميع من في المدينة من غير المحاربين ، ولكنهم مع ذلك يكرمون العاجز والفقير ، ودليلنا على ذلك أنه لما علمت الجمعية أن حفيده أريستوجيتون Aristogeiton قاتل الطغاة تعيش في لمنوس فقيرة معذمة ، أمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل به على زوج لها . وكان المظلومون المضطهدون من المدن الأخرى يجدون في أثينة ملجأ يحميهم ويعطف عليهم .

والحق أن الأثيني لم يكن يفكر في الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن ، فهو لا يأمل أن يكون له ما للصالحين من أفراد الطبقة الوسطى من ضمير ، أو ما للأشراف من شعور بالشرف ، بل يرى أن أحسن الحياة هي الحياة الكاملة ، المليئة بالصحة ، والقوة ، والجمال ، والانفعال ، والثراء ، والمغامرة ، والتفكير . والفضيلة عنده هي الرجولة (Arete) - أو الحرية كما كان معنى اللفظ في بادئ الأمر - والتفوق (Ares أي المريح) ، وهي تقابل بالضبط كلمة viritus عند الرومان ومعناها الرجولة . والرجل المثالي عند الأثينيين هو الكلوغاتوس Kalogathos أي الذي يجمع بين الجلال والعدالة في فن من فنون الغيش الراقية ، والذي يقدر في صراحة قيمة الكفاية ، والشهرة ، والثراء ، والصدقة ، كما يقدر الفضيلة وحب الإنسانية . ويرى الأثيني كما يرى جوته أن ترقية النفس هي كل شيء . ويختلط بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور لا نستسيغه نحن لصراحته : فالليونان لا يملون الإعجاب بأنفسهم ، ويعلمون في كل مقام تفوقهم على غيرهم من المحاربين ، والكتاب ، والفنانين ، والشعوب بأسرها . وإذا شئنا أن نعترف الفرق بين اليونان والرومان فما علينا إلا أن نوازن بين الفرنسيين والإنجليز ، وإذا أحببنا أن نحس بالروح

الإسبارطية وندرك الفرق بينها وبين الروح الأثينية فما علينا إلا أن نفكر في روح الألمان وروح الفرنسيين .

وقد اجتمعت صفات الأثينيين كلها لتقيم دولة - المدينة ، ففيها ولدت قوتهم وشجاعتهم ، ووحدة ذكائهم وألمعيتهن ، وشقشقة لسانهم ، وشدة مراسهم ، ومحبتهم للكسب ، وشدة غرورهم ، ووطنيتهم ، وعبادتهم للجال والحرية ، وفي دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات كلها وبلغت غايتها . وهم سريعو الانفعال ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى . ويجوزون التعصب الديني من آن إلى آن ، غير أنهم لا يتخذونه وسيلة للحد من حرية الفكر ، بل يتخذونه سلاحاً من أسلحة السياسة الحزبية ، ورباطاً لتجارهم الأخلاقية . أما فيما عدا هاتين الحالتين ، فهم يستمسكون بقدر من الحرية ، يندهش منه زوارهم الشرقيون ويبدو في نظرهم الفوضى بعينها ، ولكن حريتهم هذه ، وكون كل منصب من مناصب الدولة ميسراً لكل مواطن ، وكون كل مواطن محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى ، لكن هذه الأمور هي التي جعلتهم يخصصون نصف حياتهم لخدمة دولتهم . ولم يكن بينهم إلا المكان الذي ينامون فيه ، أما حياتهم فكانوا يقضونها في السوق العامة ، وفي الجمعية ، والمحلس ، والمحاكم ، وساحات الأعياد الكبرى والمباريات ، وفي مشاهدة المسرحيات التي يجلدون بها مدينتهم وآهتها . وهم يعترفون بحق الدولة في أن تجندهم وتستولي على أموالهم متى احتاجت إليهم وإليها . وهم يعفون عن إرهابها إياهم واستيلائها على أموالهم ، لأن عملها هذا يتيح لهم فرصة النماء الإنساني أكبر مما عرفه الإنسان في أي عصر من العصور السابقة ، وهم يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لأنها مهد حرياتهم وحارسها . وفي ذلك يقول هيرودوث : « وبهذا زاد الأثينيون قوتهم ، ويتضح كل الوضوح ، من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة ، أن الحرية من أعظم النعم ؛ ألسنت ترى أن الأثينيين ، وهم خاضعون لحكم الطغاة ، لم يكونوا يفوقون جيرانهم في الشجاعة أدنى تفوق ، ولكن لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى صاروا أشجع الشجعان بلامنازع ، (٥٤) . »

الفصل السادس

العلاقات الجنسية قبل الزواج

تبدو أثينة إبان مجدها شرقية أكثر منها أوربية في أخلاق أهلها ، كما تبدو كذلك في حروفها الهجائية ، وفي مقاييسها وموازينها ، وسكتها . وملابسها ، وموسيقاها ، وفلكها ، وطقوسها الصوفية . ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافاً صريحاً بأن العلاقة الجنسية هي أساس الحب ، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذي تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض أفلاطونية خالصة . لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج ، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية ، بعد أن يبلغوا الحلم ، إلا القليل من القيود الخلقية . وقد كانت الأعياد الكبرى ، وهي دينية في أصلها ، صامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة ؛ فكانوا في هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود في العلاقات الجنسية لاعتقادهم أن هذا يسر لهم فيما بقي من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة . ولم يكن الأثينيون يرون أن في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار ، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يسيطوا حمايتهم على تلك الخليلات ، ولا يتألم لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة^(٥٨) . وكانت أثينة تعترف بالبغاء رسمياً وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر في أثينة ، كما أصبح في معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة الرواد ، ذات فروع مختلفة لكل فرع إحصائيات . وكانت السبيل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقي في هذه المهنة كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من

المهن في تلك المدينة . وكانت أسفل طبقة من العاهرات هي طبقة البرنای pornai ، ويسكن معظم افرادها في بيرية في مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب بريابوس المعلقة عليها . وكان رسم الدخول في هذه المواخير أوبلة واحدة ، وكان الداخل يجد فيها البنات في أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً ، ولذلك يسمين الجمنای (أى العاريات) ، وكن يجوز لمن يرون ابقاعهن أن يختبروهن كما تختبر الكلاب في بيوتها . وكان في وسع الرجل أن يعقد الصفقة التي يريدها الزمن الذي يبتغيه ، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتا تعاشره أسبوعا ، أو شهرا ، أو سنة . وكانت البنت أحيانا توجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين في وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية^(٦١) . وتلى هذه الطبقة عند الأثنيين طبقة العازفات على القيثارة ، وأولئك يستخدمن ، كما تستخدم المسامرات في اليابان ، في الليالي « الحمراء » يمرحن ويعزفن ، ويرقصن رقصا فنيا أو خليعا مثيرا للشهوات ، ثم يبتن مع من يريدهن من الرجال^(٦٢) . وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدوران عن أنفسهن شر الفاقة بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازفات ، يعلمنهن كيف يجملن أنفسهن ، ويسرن عيوب أجسامهن ، ويسلبن الرجال بالعزف على الآلات الموسيقية ، كما يعلمنهن كيف يتصنعن الحب والدلال . وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلا بعد جيل ، احتفاظا للإنسان بأئمن تراث ، بالطرق التي يلهن بها القلوب ، كالنظاير بالحب بعقل وروية ، وإطالة أمده بتصنع الدلال والإباء ، والحصول به على أكبر أجر مستطاع^(٦٣) . لكن بعض العازفات ، إذا صدقنا ما قاله عنهن لوشيان بعد ذلك العصر ، كانت هن قلوب رحيمة رقيقة ، وكن يعرفن الحب الحقيقي ، ويضحين بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامي Camille . إن قصة العاهر الشريفه قصة قديمة شاب قرناها وخلع عليها طول الزمن شيئاً من الجلال والتبجيل .

وكانت ارقى طبقات العاهرات الأثينيات هي طبقة الهتايراي *hetairai* ومعناها الحرفى الرفيقيات . ولم تكن هؤلاء الرفيقات مثل طبقة الپورناى تتكون فى الغالب من نساء شريقيات المولد ، بل كانت تتألف فى العادة من بنات المواطنين اللاتى سقطن لسبب من الأسباب ، أو فررن من العزلة المفروضة على العذارى والنساء الأثينيات . وكن يعشن مستقلات بأنفسهن ويستقبلن فى بيوتهن من يغوين من العشاق . وكانت كثرتهن سمراوات بطبيعتهن ، ولكنهن كن يصبغن شعرهن باللون الأصفر لاعتقادهن أن الأثينيين يفضلون الشقراوات ؛ وكن يميزن أنفسهن بلبس أثواب منقوشة بالورد ، ولعل هذه الثياب كان يفرضها عليهن القانون^(٦٤) . وكان بعضهن يحصلن على قدر لا بأس به من التعليم بالقراءة المستقلة من حين إلى حين ، وبالاستماع إلى المحاضرات ، وكن يسلين روادهن المثقفين بحديثهن المنطوى على قدر من العلم والثقافة . وقد اشتهرت منهن تاييس *Thais* وديوتيا *Diotima* وثارجليا *Thargelia* ، وليونتيوم *Leontium* ، كما اشتهرت أسبازيا ، بمناقشاتهن الفلسفية ، واشتهرن أحيانا بأساوبهن الأدبى المصقول^(٦٥) . وذاعت شهرة الكثيرات منهن بفكاهاتهن الحسوة ، وفى الآداب الأثينية لمن مجموعة من المقطوعات الشعرية الفكاهية^(٦٦) . وكانت العاهرات على اختلاف طبقاتهن محرومات من الحقوق المدنية ، لا يجوز لمن أن يدخلن هيكل من الهياكل عدا هيكل إلههن أفرديوى بندموس *Aphrodite Pondenos* ، ولكن قلة مصطفاة من الهتايراي كانت لهن منزلة عالية فى مجالس الرجال الاجتماعية فى أثينة ، ولم يكن أحد من الرجال ستحي أن يبرى فى مصيبتن ، وكان الفلاسفة يتبارون فى كسب ودهن ، ومن المؤرخين من يروى تاريخهن بنفس الحشوع والإجلال الذى يرويه به فله طرخس^(٦٧) .

وبهذه الطرق خلدت بعضهن اسماءهن . فمن هؤلاء كليلندرا التى سميت كذلك لأنها كانت تخرج ، شاقها من عندها بعد ساعات محددة تحصيلها ساعة

رملية ؛ ومنهن ثرجيليا Thargelia متا هارى Mata Hari (*) زمانها ، التي خدمت الفرس بأن ضاجعت أكبر عدد مستطاع من ساسة أثينة (٦٨) ؛ وثوريس Theoris التي خففت عن سفكليز متاعب شيخوخته ، وأرشبي Archippe التي خلفتها في هذا العمل حوالي العقد التاسع من حياة هذا الكاتب المسرحي (٦٩) ؛ ومنهن أركيانسا Archeanassa التي كانت تسلي أفلاطون (٧٠) ، وداني Danae وليونتيوم Leontium اللتين علمتا أبيقور فلسفة اللذة ؛ ومنهن تمستونوثي Themistonee التي ظلت تمارس مهنتها حتى فقدت آخر سن من أسنانها وآخر خصلة من شعرها ؛ ومنهن ناثينا Onathina التي كانت تطلب ألف درخمة (ألف ريال أمريكي) ثمناً لمضاجعة ابنتها ليلة واحدة ، لأنها قضت وقتاً طويلاً في تدريسها وإعدادها لمهنتها (٧١) . وكان جمال فريني Phryne حيث أثبتت كلها في القرن الرابع ، وذلك لأنها لم تكن تظهر أمام الناس إلا وهي محبجة من رأسها إلى قدمها ، واكنها في عيدي لاوزيا ويسدونيا تخلع ثيابها أمام الناس كلهم وتسدل شعرها على جسمها وتنزل البحر لتستحم (٧٢) ، وقد عشقت بركستيليز المثال ، ووقفت أمامه لينحت على صورتها تماثيل أفرديتي . وعلى صورتها أيضاً نحت أبليز تمثال أفرديتي أناديوموني Aphrodite Andeyomone (٧٣) . وأثرت فريني من عشاقها إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبون على نقش اسمها على هذه الأسوار ، ولكنهم أصروا على رفض هذا الغرض . ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس Euthias من أجر لها ، فثار لنفسه منها باتهامها بالإلحاد ؛ واكن أحد أعضاء الحكمة كان من زبائنها ، كما كان هيبيديز الخطيب من عشاقها المفتونين بها ، ودافع عنها هيبيديز ولم يستخدم في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل بشق أمام الحكمة جلبابها وكشف عن صدرها . ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤها من تهمة الإلحاد في الدين (٧٤) . ويقول أثينيوس

« يبدو أن لئيس Laïs الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين » (٧٥) . وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل في عددها عن المدن التي تتنازع شرف انتساب هومر إليها . ويتوسل إليها الماثلون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تماثلها أو يصوروها ، ولكنها تمنع حياء ونخجلا ، ثم يتغلب عليها ميرون Myron العظيم في شيخوخته فتقبل طلبه ، حتى إذا خلعت ثيابها نسي وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ، وهزت كتفها المستديرتين ، وتركته دون أن ينحت التمثال . وفي صباح اليوم الثاني اشتد به الوجد ، وعادت إليه نشوة المراهقة ، فصصف شعره ، وحلق لحيته ، وارتدى ثوباً رمزى اللون ، وتمنطق بمنطقة ذهبية ، وتقلد قلادة ذهبية ، وتختم في جميع أصابعه ، وحر خديه ، وعطر ثيابه وجسمه ، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئيس ويعلن أنها متيم بها . فنظرت إلى صورته المسوخة وعرفت من هو ، ثم أجابته بقولها : « أيها الصديق المسكين ، إنك تطلب ما أبيته على أهلك بالأمس » (٧٦) . وجمعت لئيس من مهنتها ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن تمنع نفسها عن فقراء العاشقين من ذوى الجمال ، وقد أعادت دمستين القبيح الصورة إلى الفضيلة ، بأن طلبت إليه عشرة آلاف درخمة أجر ليلة واحدة (٧٧) . واكتسبت من أرسطيس الثرى من المال ما أفزع خادمه (٧٨) ، أما ديجين المعلم فكانت تسلم نفسها إليه بأقل أجر ، لأنها يسرها أن يجثو الفلاسفة أمام قدميها . وقد أنفقت ثروتها في سخاء في تشييد المعابد والمباني العامة ، وعلى الأصدقاء ، ثم عادت آخر الأمر ، كما يعود معظم من على شاكلتها ، فقيرة كما كانت أيام شبابها ، وأخذت تمارس مهنتها صابرة إلى آخر أيام حياتها ، فلما فقست نجحها أقيم لها قبر فخم تكريماً لها ، لأنها كانت أعظم غازية منتصرة عرفها اليونان طول تاريخهم (٧٩) .

الفصل السابع

الصدّاقة اليونانية

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين في غير حياء بالانحراف الجنسي. فلقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينة ، وكانت العاهرات اللاتي يسربلهن العار من قمة رعوسهن إلى أخصر أقدامهن لا يفتأن ينددن بما في عشق الذكور للذكور من فساد خلقى شنيع. ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعوهم لمن يدفع فيهم أعلى الأثمان ، وكان هؤلاء يستخدمونهم في أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء^(٨٠). ولم يكن من بين الذكور في المدينة إلا أقلية ضئيلة تعتقد أن ثمة عيباً في أن يثير الشباب الخثثون أبناء الأشراف في المدينة شهوة شيوخها ويشبعوا هذه الشهوة. ولم تكن اسبارطة أقل استهتاراً من أثينة في هذا الشذوذ الجنسي ، وشاهد ذلك أن ألكمان حين أراد أن يثنى على بعض الفتيات سماهن «أصدقاءه - الغلمان الإناث^(٨١)». وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية^(٨٢) ، ولكن الرأي العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويجيزها وهو هازل فكه ؛ ولم يكن أهل اسبارطة أو كريت ينظرون إليها نظرة الاستنكار^(٨٣). وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكري. وكان هرمديوس وأرستجيتون ، وهما أعظم بطلين تعتر أثينة بذكراهما ، من قتلة الطغاة وعشاق الغلمان وكان السيديز أحب الناس إلى الشعب الأثيني في أيامه ، وكان يفتخر بكثرة من عشقه من الرجال. ولقد ظل «العشاق اليونان» إلى أيام أرسطاطاليس يعلنون ولاءهم لمعشوقهم عند قبر أيولوس رفيق هرقل^(٨٤) ؛ ويصف أرستس زونوفون قائداً للجيش الذي اشتهر

بأنه من أشد رجال العلم صلابة وعناداً ، بأنه مشغوف بحب الفتي كلينياس Cleinias^(٨٥) . وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام مثله في بلاد اليونان ، جميع مظاهر الغرام الروائي - من عاطفة جياشة ، وحب عذرى ، ونشوة ، وغيرة وعزف وغناء تحت نوافذ المعشوقين ، وطول تفكير ، وتوجع وأنين ، وسهاد طويل^(٨٦) . وإذا تكلم أفلاطون في الفدروس Phaedrus عن الحب الإنساني ، فلإنما يتكلم عن الحب الجنسي بين الذكران ، ويتمق الجادلون في محاوراته في نقطة واحدة - هي أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة^(٨٧) . ونرى هذا الشذوذ نفسه بين النساء ، ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل سوفو Sopho ، وكثير بين العاهرات ؛ فالعاهرات المسامرات مثلاً يجب بعضهن بعضاً أكثر من حبهن من يعشن في كنفهم من الرجال ، وعاهرات الماخير تروى عنهن أعجب القصص في عشق بعضهن بعضاً^(٨٨) .

نرى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان ؟ فأما أرسطاطاليس فيفسره بخوفهم أن تزدهم بلادهم بالسكان^(٨٩) ، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة ، ولكن لا جدال في أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة في أثينة من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى ، فقد كان الأولاد في أثينة في عصر بركليز يؤخذون من أجنحة الحرم في البيوت حيث تقضى النساء المحصنات حياتهن ، وينشئون عادة في صحبة أولاد الملهم أو رجال ، وقلما تتاح لهم فرصة في طور تكوينهم وفي الفترة التي لم يشعروا فيها بعماد برجولتهم ، يدركون فيها جاذبية الجنو النسوى . كذلك كانت حياة الغلمان الجاهمة في اسبارطة ، واشتراكهم في الطعام ، واجتماعهم في الأسواق العامة ، والملاعب الرياضية ، وفي مدارس الألعاب في أثينة ، وحياة ونظلمات الشباب ، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور . وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوى قبل عهد بركستليز . وقلما كان

الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية ، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموا أزواجهم من الحصول عليها . ولم يكن البيت للمواطن الأثيني حصنه وملجأه ، بل كان مكان نومه . وكان في كثير من الحالات يقضى النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها في المدينة ، وقل أن تكون بينه وبين النساء المحترمات عدا زوجه وبناته أية صلوات اجتماعية . لهذا كان المجتمع اليوناني مقصوراً على أحد الجنسين ، يعوزه الحيوية ، والظروف ، والمجاملة ، والاستثارة ، وهي الصفات التي اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا في عهد النهضة وفرنسا في عهد الاثارة .

الفصل الثامن

الحب والزواج

الحب الرواى موجود بين اليونان ولكنه قلما يكون سبب الزواج ؛
ولسنا نجد إلا القليل منه فى شعر هومر حيث يذكر أجمنون وأخيل
كريسيس Chryseis ، وبريسيس Briseis ، ويذكران أيضاً كسندرا
التي لا تستجيب لحبهما فى عبارات تم عن الشهوة الجسمية ؛ لكن فى
قصة نسكا ما يحدرننا من أن نعم هذا الحكم ، ودليلنا على هذا ما نجده
من القصص التي لا تقبل فى قدمها عن عصر هومر نفسه مثل قصة هرقليط
وأيولا ، وقصة أورفيوس ويورديس . كذلك يتحدث الشعراء الغنائيون
حديثاً لمويلا عن الحب ، ويعنون به فى العادة الرغبة فى إشباع الشهوة ؛
والقصص التي تروى أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد ، كالقصة التي
يروها استسكورس ، نادرة أو تكاد تكون معدومة ، ولكننا حين نرى
ثينو Theano زوجة فيثاغورس تصصف الحب بأنه « مرض النفس
المشتاقة» (٩١) « نحس بقية الحب الرواى الحقيقية . ولما زادت مشاعر اليونان
رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسم ، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة ،
وأصبح طول الفترة التي تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح
للخيال فرصة يخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول . وقد ظل إيسكلس نفسه
هومرى النزعة فى معاملته للنساء ، ولكننا نستمتع فى سفكل عن « الحب الذي

يحكم الآلهة بإرادتها(*) (٩٢) ، وفي شعر يورپديز مقطوعات كثيرة في وصف قوة إيروس Eros إله الحب . وكثيراً ما يصف المتأخرون من كتاب لمسرحيات شاباً يهيم بحب فتاة (٩٣) ، ونستشف من أقوال أرسطاطاليس الصفة الحقيقية للعشق الروائي حين يقول « إن المحبين ينظرون إلى أعين أحبائهم ، حيث يستكن الخنفر (٩٤) » .

وكانت هذه الشئون وأمثالها في عصر اليونان الزاهر تؤدي إلى صلات الجنسيتين قبل الزواج أكثر مما تؤدي إلى الزواج نفسه . ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائي صورة من « تميمص الشيطان للجسم » أو من الجنون ، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدى بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة (٩٥) . وكان الزواج عادة يتفق عليه والدا الزوجين كما كان يحصل على اللوام في فرنسا القديمة ، أو بين خطاب محترفين (٩٦) ، أكبر ما يهتمون به فيه البائئات لا الحب . فقد كان ينتظر من والد الفتاة أن يهيئ لابنته بائنة من المال ، والثياب ، والجواهر ، ومن العبيد في بعض الأحيان (٩٧) .

(*) قارن هذا بما ورد في أنتيجون :

إذا اشتبك الحب في نزاع

كسب المهكة لا محالة ،

والحب يسلب الأغنياء متاعهم !

وهو يبيت سهران طول الليل

بجنديه الناعمين على وسادة اللدراء ،

يبحث عن قريسته على متن البحار ،

ويتقرب عنها بين ملاجئ الرعاة ،

وليس في وسع الآلهة أن تفر من سلطانه ،

وهي التي وهبت الخلود ،

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم

فأجن العقل اللد ينطوى عليه (٩٢) !

حوكيات هذه البائنة تبقى على الدوام ملكا للزوجة ، وتعود إليها إذا افترقت عن زوجها - وهو نظام يقلل من احتمال طلاقها منه . فإذا لم يكن للبنت بائنة فقلما تجد لها زوجا ، ومن أجل هذا كان أقاربها يجتمعون ليعلموها لها إذا عجز الوالد نفسه عن إعدادها . وبهذه الطريقة انقلب الزواج بالشراء الذي كان كثير الحدوث في أيام هومر ، فصارت المرأة في عهد بركليز هي التي تشتري زوجها ؛ ومن هذا الوضع تشكو ميديا في إحدى مسرحيات يورپديز . فلم يكن اليوناني إذن يتزوج لأنه يجب ، ولا لأنه يرغب في الزواج (فهو كثير التحدث عن متاعبه) ، بل ليحافظ على نفسه وعلى الدولة عن طريق زوج جاءت به بائنة مناسبة ، وأبناء يردون عن روحه الشرور التي تصيبها إذا لم تجد من يعنى بها . ولقد كان رغم هذه المغريات كلها يتجنب الزواج ما دام يستطيع تجنبه . ولقد كانت حرفة القانون تحرم عليه أن يبقى عزباً ، ولكن القانون لم يكن ينفذ دائماً في أيام بركليز ؛ ولما انقضى عهده زاد عدد العزاب حتى صار مشكلة من المشاكل الأساسية في أثينة^(٩٩) . ألا ما أكثر الأمور التي تدهش الإنسان في بلاد اليونان ! وكان الذين يرضون بالزواج من الرجال يتزوجون متأخرين ، في سن الثلاثين عادة ، ثم يضررون على الزواج من فتيات لا تزيد سنهن على خمسة عشر عاماً^(١٠٠) . وفي ذلك تقول إحدى الشخصيات في مسرحية ليورپديز : « إن زواج الشاب من زوجة شابة شر مستطير^(*) ، وسبب ذلك أن قوة الرجل تبقى طويلاً ، أما نضرة الجمال فسرعان ما تنفارق صورة المرأة^(١٠١) .

فإذا تم اختيار الزوجة ، واتفق على بائنتها ، تمت خطبتها رسمياً في بيت والدها ؛ ويجب أن يحضر هذه الخطبة شهود ، ولكن حضور الفتاة نفسها لم يكن ضرورياً . فإذا لم تتم هذه الخطبة الرسمية ، لم يعترف القانون الأثيني

(*) لعله يريد أن الرجل يجب ألا يتزوج صغيراً . (المترجم)

بالتزواج ، فكانت هذه الخطبة والحالة هذه هي العمل الأول في مراسم الزواج المعقد . وكانت الخطوة الثانية التي تتبع هذه الخطوة الأولى بعد أيام قلائل هي إقامة وليمة بهذه المناسبة في بيت الفتاة : وكان الزوج والزوجة قبل أن يحضرا هذه الوليمة يستحمان كل منهما في بيته استحماما يتطهران به رسمياً ، ثم تقام الوليمة ويجلس رجال الأسرتين في جانب من جوانب الحجرة ، نسائها في جانب آخر ، ثم يأكل الجميع كمعكة العرس ويشربون الكثير من والخمر ، ثم يأخذ العريس بيد عروسه المحجبة ذات الثوب الأبيض - ولعله لم يكن قد رأى وجهها من قبل - ويسير بها إلى عربة تقلها معه إلى بيت أمه في موكب من الأصدقاء ومن الفتيات العازفات على القيثارة ، ويضاء لها الطريق بالمشاعل ، وتنشد لها أناشيد الزواج . فإذا وصلا إلى البيت حملها وتخطى بها عتبة الدار ، كأنه يمثل بذلك أسرها في العهد القديم ، ويحيي أبوا الزوج الفتاة ، ويستقبلانها استقبالا دينياً ويدخلانها في دائرة الأسرة وفي عباد آلهتها ؛ ولم يكن للكاهن دور ما في مراسم الزواج كلها . ثم يرافق الضيوف الزوجين إلى حجرتهما ، وهم ينشدون أنشودة غرفة الزواج ، ويتلكؤون صاحبين عند بابها حتى يعلن لهم العريس أنه قد جنى ثمرة الزواج .

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له فضلا عن زوجته خلية يعاشرها معاشرة الأزواج . وفي ذلك يقول دمستين : « إنا نتخذ العاهرات للذة ، والتحليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعينن ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص » (١٠٢) ، وفي هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع دمستين رأى اليونان في المرأة إبان عصرهم الذهبي . وتبيح قوانين دراكون التسرى ، ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التي سيرت على صقلية سنة ٤١٥ ق . م ، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجاً لهن ، أباح

القانون صراحة الزوج بائنتين ، وكان سقراط ويورپديز من بين من استجابوا لهذا الواجب الوطني (١٠٣) . وكانت الزوجة عادة تقبل التسرى وتصبر عليه صبر الشقيقات ، لأنها تعرف أن « الزوجة الثانية » متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت في واقع الأمر جارية في المنزل ، وأن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين . ولم يكن الزنى يؤدي إلى الطلاق إلا إذا ارتكبه الزوجة ، وكان الزوج في هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين Keroesses (*) ، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته (١٠٤) . وكان القانون يعاقب الزانية ، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة ، بالإعدام ، ولكن اليونان بلغوا من التساهل في الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد في تنفيذ حكم هذا القانون ، فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزاني بالطريقة التي يختارها -- فتارة يقتله في حالة التلبس ، وتارة يرسل له عبداً يقتله ، وتارة يكتفى بأن يأخذ منه تعويضاً (١٠٥) .

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان في وسعه أن بطردها من بيته متى جاء من غير أن يبدى لذلك سبباً . وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء . أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يميز ، والرأى العام يجب ، أن يستعين الزوج في هذه المهمة بأحد أقربائه . وكان الطفل الذي يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه ، وعليه أن يعنى بروحه بعد وفاته . ولم يكن يباح للزوجة أن تترك زوجها متى شاءت ، ولكن كان في وسعها أن تطلب إلى الأركان أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها أو

(*) وهذا المصطلح نفسه موجود في اللغة العربية فالقرنان عندهم هو الدبوث ، وإن كانت المعاجم العربية تقول إن اللفظ مأخوذ من القرينة لآمن القرن ، ويقولون في الإنجليزية to grow horns (المترجم)

تجاوز حد الاعتدال في شتونه (١٠٦) ، وكان الطلاق يباح أيضاً إذا تراضى الزوجان ؛ وكان هذا التراضى يعبر عنه عادة بإعلانه رسمياً إلى الأركان .
ولذا اقترب الرومان بقى الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه (١٠٧) .
وجملة القول أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال ، وهي تمثل النكوص عن المستوى الذى وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر هومر ، وتميل بالمجتمع الأثيني ناحية الشرق .

الفصل التاسع

المراة

من الأمور التي لا تقل دهشة الإنسان منها عن دهشته من أى شيء آخر في هذه الحضارة ، أنها ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة . لقد قام عصر الأبطال ، بفضل معونة النساء ، بجلائل الأعمال وبهذه المعونة أنتج عصر الطغاة روائع الشعر الغنائى ، ثم اختفت النساء المتزوجات من تاريخ اليونان بين يوم وليلة ، كأن الأقدار قد أرادت أن تدحض حجة القائلين بأن ثمة ارتباطاً بين مستوى الحضارة في بلد ما ومركز المرأة فيه . فبينما نرى المرأة في تاريخ هيرودوت في كل مكان ، إذ لانراها في تاريخ توكيديلز في أى مكان ، وترى الأدب اليونانى من سمنيدز الأمرجوسى Semonides of Amorgos إلى لوشان يكرر أخطاء النساء تكريراً تشتمن منه النفس ، وفي آخر هذا العصر يكرر فلوطارخس الرحيم نفسه قول توكيديلز (١٠٨) : « يجب أن يجبس اسم السيدة المصونة في البيت كما يجبس فيه جسمها (١٠٩) » .

وهذه العزلة النسائية لا وجود لها عند الدورين ، وأكبر الظن أنها جاءت من الشرق الأدنى إلى أيونيا ، ثم انتقلت من أيونيا إلى أتكا ، فهى جزء من تقاليد آسية . ولعل لاختفاء نظام التوارث عن طريق الأم ، ونشأة الطبقات الوسطى ، وسيطرة النظرة التجارية إلى الحياة ، لعل لهذه الأمور أثرها في هذا التغيير : ذلك أن الرجال في هذه الأحوال ينظرون إلى النساء نظرة نفعية ، فيجدون أكثر فائدة لهن في البيت . وتنفق الصبغة الشرقية التي اصطبغ بها الزواج اليونانى مع نظام العزلة الأتكية (Attic) ، فهذا الزواج

يقطع الصلة بين العروس وأقاربها ، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها ، تعبد فيه آلهة غير آلهتها . ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء أو أن تستلدين أكثر من مبلغ نافلة أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم . ومن شرائع صولون أن العمل الذى يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً (١١٠) ؛ وإذا مات الزوج لم ترث زوجته شيئاً من ماله . وحتى العيب الفسيولوجى في أمور التناسل يعد سبباً مشروعاً لإخضاعها للرجل ؛ فبينما كان جهل الرجل في الأزمنة البدائية بدوره في 'أمور التناسل' يؤدي إلى رفع شأن المرأة ، نرى النظرية السائدة في عصر اليونان الزاهر ترفع من شأن الرجل بتقريرها أن قوة التناسل يختص بها الرجل وحده ، وأن المرأة لا تعدو أن تكون حاملاً للطفل ومرضعاً له (١١١) . وكان كبير سن الرجل عن المرأة وقت الزواج من أسباب خضوع المرأة ، فقد كانت سنه في ذلك الوقت ضعف سنها ، وكان في وسعه إلى حد ما أن يشكل عقلها حسب آرائه وفلسفته في الحياة . وما من شك في أن الرجل كان يعرف ما يتمتع به الرجال من حرية في المسائل الجنسية في أثينة معرفة تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان في وسعها إذا تحجبت الحجاب اللائق بها ، وصحبها من يوثق به ، أن تزور أقاربها وأخصاءها ، وأن تشترك في الاحتفالات الدينية ومنه مشاهدة التمثيل ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان ينتظر منها أن تقبع في منزلها وألا تسمح لأحد أن يراها من النافذة . وكانت تقضى معظم وقتها في جناح النساء القائم في مؤخرة الدار ، ولم يكن يسمح لزائر من الرجال أن يدخه ، كما لم يكن يسمح لها بالظهور إذا كان مع زوجها زائر .

وكانت وهى في البيت تكرم وتطاع في كل ما لا يتعارض مع سلطة زو الأبوية . فهى تدبر شئون البيت أو تشرف على تدبيرها ؛ وهى ته

الطعام ، وتمشط الصوف وتغزله ، وتحيط ثياب الأسرة وتصنع فراشها .
ويكاد تعليمها أن يكون مقصوراً على الفنون المنزلية ، لأن اليونان كانوا
يعتقدون مثل يورپديز أن ذكاء المرأة يعوقها عن أداء واجباتها^(١١٢) . وكانت
نتيجة ذلك أن نساء أثينة المحصنات كن أكثر تواضعاً ، وأكثر « فتنة »
لأزواجهن من مثيلاتهن في اسپارطة ، ولكنهن كن في الوقت نفسه أقل منهن
ظرفاً ونضوجاً ، عاجزات عن أن يكن رفيقات لأزواجهن ، لأن عقول
هؤلاء الأزواج قد امتلأت وانصقلت بتجارب الحياة المختلفة ، ومن أجل
هذا أفاد الأدب اليوناني كثيراً من اليونانيات في القرن السادس ولم يفد شيئاً
من نساء أثينة في عصر بركليز .

وقامت في أواخر هذا العصر حركة تهدف إلى تحرير المرأة . فرى يورپديز
يدافع عن النساء في خطب جريئة ونغمزات خفيفة ، أما أرسطوفان فيسخر
منهن بالفاظ وقحة صاخبة . وتنزل النساء إلى الميدان في حركة التحرير ويختزن
أقوى سلاح فيبدأن ينافسن الهيتميراي ويملن أنفسهن بكل ما يمدن به تقدم
الكيمياء من معونة . وشاهد ذلك سؤال تسألها كليونيكا Cleonica في مسرحية
ليستراتا Lysistrata لأرسطوفان : « أى شيء معقول نستطيع أن نقوم به
نحن النساء ؟ إنا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نجلس جماعات بأدهانتنا ،
وأصباغ شفاهنا ، وأثوابنا الشفافة وما إلى ذلك »^(١١٣) . وتصبح أدوار النساء
من عام ٤١١ أكثر شأناً في المسرحيات الأثينية مما كانت من قبل ، وهى
تكشف عن خروج المرأة شيئاً فشيئاً من العزلة التى كانت مفروضة عليها ،
على أن سلطان المرأة الحقيقي على الرجل يظل قائماً في خلال هذا التغيير كله ،
ويجعل خضوعها للرجل خضوعاً غير حقيقى إلى حد كبير . إن اشتياق الرجل
للمرأة أكثر من اشتياق المرأة للرجل يكسب المرأة في اليونان كما يكسبها في غيرها
من البلاد ميزة كبرى عليه . وفي ذلك يقول صمويل چنسن : « سيدى ؛ لقد
وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئاً »^(١١٤)

وقد يضاعف من هذه السيادة الطبيعية أحياناً بائنها الكبيرة ، أو لسانها السليط ، أو حب زوجها لها حباً يجعله خاضعاً ذليلاً لها . وأكثر ما يقوم عليه سلطانها وجمالها ، أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم ، أو انصهار روحها وروح زوجها في بوتقة التجارب والواجبات المشتركة ، إلا أن عصرأ يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتجوني ، والسستيس ، وإفجينيا ، وأندرمكي ، ويصور بطلات مثل هكيبا ، وكسندرا ، وميديا ، إن عصرأ يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهد أسمى ما في المرأة وأعمق ما فيها . لقد كان الأيني العادى يحب زوجته ، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب ، وإن الألواح الجنائزية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهم في داخل جدران المنزل ، وهو في كلتا الحالين حنو يثير الدهشة . وفي دواوين الشعر اليونانية كثير من الشعر الغزلى الواضح الصريح ، ولكن فيه أيضاً كثيراً من المقطوعات الشعرية المؤثرة التي تخاطب بها الرفيقة المحبوبة ! . انظر مثلاً إلى هذه القبرية : « في هذا الجحر وارى مرثونيز Marethonis نيقوبوليس Nicopolis ، وروى صنلوقها الرخامى بعبراته ، ولكن هذا لم يجده نفعاً . وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقت زوجته ، وبقى هو وحيداً على ظهر الأرض ؟ » (١١٥)

الفصل العاشر

المنزل

وكانت الأسرة اليونانية ، كالأسر الهندوسية بوجه عام ، تتكون من الأب والأم ، « الزوجة الثانية » أحياناً ، ومن بناتهما غير المتزوجات ، وأبنائهما ، وعبيدهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم ، وعبيدهم . وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمة في الحضارة اليونانية ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى وأداته في الزراعة والصناعة على السواء . وكان للأب في أتكا سلطان واسع في أسرته ، ولكنه كان أقل من سلطان الأب في رومة ، فقد كان في وسعه أن يعرض الطفل الحديث للولادة للموت ، ويبيع عمل أبنائه القاصرين وبناته غير المتزوجات ، ويزوج بناته لمن يشاء ، ويختار زوجاً آخر لأرملته بعد وفاته في بعض الظروف المعينة^(١١٦) . ولكن القانون الأثيني لم يكن يجيز له أن يبيع أبنائه أنفسهم ، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه ، وينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح عضواً مستقلاً في العشيرة :

ولم يكن البيت اليونانى على شىء من الفخامة . فقلما كان بناؤه الخارجى يزيد على سور سميك خال من الزينة ذى مدخل ضيق ، وهو شهادة صامتة على ما كان يكتنف الحياة اليونانية من أخطار . وكانت مادة البناء هى الستوق Stucco ، واللبن فى معظم الأحيان . وكانت بيوت المدينة تتجمع فى شوارع ضيقة ، وترتفع فى الغالب طابقين ، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر ، ولكن كل مواطن كان يمتلك فى الغالب بيتاً مستقلاً . وظلت المساكن صغيرة فى أثينة حتى ضرب ألسيديز لأهلها مثلاً فى الفخامة ؛ ذلك

أن النزعة الديمقراطية ، يقويها الحذر الأرستقراطي ، كانت تحول بين الأهلين وبين التفاهم والتظاهر ، وكان تعود الأثيني قضاء أكثر وقته في الهواء الطلق يصرفه عن أن يكون للبيت نفسه من المعنى ومن الإعزاز ماله في المناطق الباردة . وكان لبيت الأثيني الغنى في بعض الأحيان مدخل ذو عمد مواجه للشارع ، ولكن هذا كان من المظاهر الشاذة النادرة . كذلك كانت النوافذ ترفاً نادر الوجود ، وإذا وجدت اقتصر على الطابق الأعلى ، ولم تكن لها ألواح زجاجية ، ولكنها كانت تغلق بمصاريع خشبية ، أو تكون مشبكة لتحجب أشعة الشمس . وكان الباب الخارجى يتكون عادة من مصراعين يدوران على محورين ينفذان في إسكفة الباب وعتبته . وكانت أبواب الكثير من بيوت الأغنياء مطرقة معدنية تتخذ في أغلب الأحيان صورة حلقة في فم أسد (١١٧) . وكان يمتد من مدخل الدار - إلا في دور الفقراء - ممشى يؤدي إلى فناء مكشوف يسمى الأول Aule يرصف عادة بالحجارة ، ويحيط به أحياناً رواق وعمد ، وقد يكون في وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما ، مزدان أحياناً بالعمد ، ومرصوفة أرضيته بالفسيفساء . ويدخل أكثر الهواء وضوء الشمس إلى البيت من هذا الفناء ، لأن الأبواب جميع حجراته تفتح فيه ، وكان لا بد لمن يريد الدخول من حجرة إلى حجرة أن يدخل الرواق أو الفناء . وكانت الأسرة تقضى معظم حياتها ، وتقوم بأكثر أعمالها ، في ظلال الرواق والفناء وخلوتها .

وكانت الحدائق نادرة في المدينة ، وتقتصر على مساحات صغيرة في فناء البيت أو خلفه ، أما حدائق الريف فكانت أكثر من حدائق المدينة عدداً وأوسع رقعة ؛ ولكن قلة الأمطار في الصيف وتكاليف الإرواء قد جعلت الحدائق في أتكاف ترفاً لا يستمتع به إلا القليلون . ولم يكن اليوناني العادى مرهف الحسى بالطبيعة كروسو Rousseau ، وكانت جبال بلاده لا تزال من أسباب متاعبه ، ولهذا لم تكن في نظره جنابة جميلة ، وإن كان شعراء اليونان

ينظمون القصائد التي يتغنون فيها بجمال البحر رغم أخطاره الشديدة . ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه ، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية ، فهو يملأ الغابات ومجارى المياه فى بلاده بالآلهة والأشباح ، وإذا فكر فى الطبيعة لم يكن تفكيره فى جمال مناظرها ، بل فى أنها مكان تنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا فى الميدان . وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها ، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صوراً رمزية للآلهة التى تبث فيها الحياة حسب ما تحدته دياناته الشعرية ، أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة . ولم ينشئ اليونانى لنفسه حديقة أو « جنة » ينعم بها ، وظل كذلك حتى عادت إليه جيوش الإسكندر بأساليب الفرس وذهبهم . ومع هذا فقد كانت الأزهار محبوبة فى بلاد اليونان كما كانت محبوبة فى غيرها من البلاد ، وكانت الحدائق تنبتها ، وبائعات الأزهار تمدهم بها ، طوال العام . فكانت الفتيات البائعات يتنقلن من بيت إلى بيت يبعن الورد ، والبنفسج ، والزنبق والرجس ، والسوسن والآس ، والليلق ، والزعفران ، وشقائق النعمان . وكانت النساء يزين شعرهن بالأزهار ، والشبان المتأقنون يضعونها خلف آذانهم ؛ وكان الرجال والنساء يخرجون فى الأعياد وحول رقابهم عقود من الأزهار (١١٨) .

وكان البيت من داخله غاية فى البساطة . فأما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طيناً جف وتصلب ، فلما زاد دخل هؤلاء أخذوا يغطون هذه الطبقة الأرضية بالحصباء أو يرصفونها بحجارة مستوية ، أو بقطع منها صغيرة فى أرضية من الأسمنت . كما كان أهل الشرق الأدنى يفعلون من أقدم الأزمان . وكانوا أحياناً يغطون هذا بالحصص أو الأبسطه . وكانت الجدران المقامة من الآجر تطل بالحصص أو بالجير . وكانوا يدفنون أنفسهم على مواقد من نحاس يخرج دخانها من أبواب الحجرات إلى فناء الدار ، ولم يكونوا يحتاجون إلى هذه التدفئة أكثر من ثلاثة أشهر فى العام . وتكاد البيوت أن تكون خالية من

الزينة ، لكن الأغنياء في أواخر القرن الخامس أخذوا يزينون بيوتهم بالأبهاء ذات العمد ، وجدراهم بقطع من الرخام أو بطلاء يجعلها شبيهة بألواح الرخام ، ويلقون على هذه الجدران صوراً ملونة أو قطعاً من القماش المزركش ، ويحلون سقفها بنقوش على الطراز العربي . وكان الأثاث قليلاً في البيوت العادية - فلم يكن يزيد على بضعة كراسي وصناديق ، وقليل من النضد ، وسرير . وكانت الوسائد توضع على الكراسي بدل المقاعد المنجدة ، ولكن كراسي الأغنياء كانت تزين في بعض الأحيان بنقوش محفورة فيها عناية فائقة ؛ أو تطعم بالذهب أو بأصداف السلاحف ، أو العاج . وكانت الصناديق تتخذ أصونة ومقاعد معاً ، وكانت النضد صغيرة ، تقف عادة على ثلاث أرجل ، وهذا هو سبب تسميتها « بالطرايزات » أي ذات الأرجل الثلاث . وكان يوثق بها مع الطعام ثم ترفع بعده ، وقلما كانت تستخدم في غير هذا الغرض ، فقد كانوا يكتبون على ركبهم . وكانت الأرائك والأسرة من وسائل الزينة المحبوبة ، وكانوا يعنون كثيراً بحفرها وتطعيمها وكانت لهم حشايا ووسائد وأغطية للفرش مطرزة ووسائد للرأس مرتفعة وكانت المصابيح تعلق من السقف أو توضع على قواعد ، أو تتخذ شكل مشاعل جميلة النقش .

وكان المطبخ مجهزاً بكثير من الأواني المختلفة المصنوعة من الحديد ، والبرنز ، والخزف . أما الزجاج فكان من مواد الترف النادرة . ولم يكن يصنع في بلاد اليونان . وكان الطعام يطهى فوق نار في اعراء ، أما المواقد فكانت بدعة اخترعت في البلاد التي اصططبت بالصبغة اليونانية . وكانت الوجبات الأثينية بسيطة . مثلها في ذلك مثل الوجبات الاسبارطية ، وتختلف كثيراً عن الوجبات البوئية ، والكورثية ، والصقلية ؛ فإذا كان الأثينيون ينتظرون قدوم ضيف يريدون تكريمه استخدموا في العادة طاهياً محترقاً ، وكان دائماً من الرجال . وكان الطهو فناً راقياً ألفت فيه

كثير من الكتب واشتهر به كثير من الأبطال ، فن الطهاة اليونان من لا تقل شهرتهم لدينا عن شهرة آخر الأبطال الفائزين في الألعاب الأولمبية . وكان الأثينيون يعدون من يأكل منهم بمفرده جلفا غير مهذب ، وكانت آداب المائدة عندهم دليلا على ارتفاع الحضارة . وكان الأولاد والنساء يجلسون حول موائد صغيرة ، أما الرجال فكانوا يتكثون على آرائك تتسع الواحدة لرجلين . وكانت الأسرة تأكل مجتمعة إذا لم يكن عندها غرباء ؛ فإذا كان لديها ضيوف من الرجال انسحبت نساء الأسرة إلى جناح الحریم . وكان الخدم يخلعون نعال الضيوف أو يغسلون لهم أقدامهم قبل أن يتكثوا على الأرائك ويقدمون لهم الماء ليغسلوا به أيديهم ؛ وكانوا في بعض الأحيان يدهنون لهم رؤوسهم بالزيوت المعطرة ؛ ولم يكونوا يستخدمون السكاكين أو الشوك ، ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق ، ويتناولون الطعام بالأصابع . وكانوا في أثناء الطعام ينظفون أصابعهم بلقيمات من الخبز ، ويغسلونها بعدئذ بالماء . وكان الخدم يملئون قده كل ضيف قبل تناول الحلوى من آنية تحتوي على خمر مخفف بالماء . وكانت الصحاف من الخرف ، ثم ظهرت الصحاف الفضية في آخر القرن الرابع ؛ وبدأ المتأثقون في الطعام والشراب يزداد عددهم في القرن الرابع ؛ ومن هؤلاء رجل يدعى بيثلس Pithyllus صنع للسانه وأصابعه أغشية يستطيع بها أن يأكل الطعام مهما كانت حرارته (١١٩) . وكان منهم بعض من يقتصرون على الخضر ، وكان ضيوف هؤلاء يسخرون منهم ويشكون كمادة الضيوف مع أمثالهم . من ذلك قول أحدهم : « إنه هرب من وليمة لا تقدم فيها إلا الخضر خشية أن تكون حلواها هي الدريس » (١٢٠) .

ولم يكن الشراب أقل شأنا عندهم من الطعام ، فكان الغداء (الديپنون deipnon) يتلوه الشراب الجماعي symposion . وكان في اسبارطة وأثينة

أندية للشراب تتوثق العلاقة بين أعضائها توثقا تصبح معه هذه الأندية أدوات سياسية عظيمة القوة .

وكانت الإجراءات التي تتبع في الولائم كثيرة التعقيد ، وكان الفلاسفة أمثال زنوكراتس Xenocrates وأرسطاطاليس يرون أنه يحسن بهم أن يضعوا لها قوانين (١٢١) .

وكانت الأرض التي يلتقي عليها ما لا يؤكل من الطعام تنظف بعد الانتهاء من تناوله ، ويطوف عليهم الخدم بالروائح العطرية والخمر الكثير . ثم يرقص الضيوف إذا شاعوا ، ولكنهم لم يكونوا يرقصون أزواجاً أو مع النساء (لأن الرجال وحدهم هم الذين كانوا يدعون عادة إلى الولائم) بل جماعات ، أو كانوا يلعبون ألعاباً كالكتوموس (*) ، أو يتقارضون الشعر ، أو يتبادلون الملح ، أو الألبان ، أو يشاهدون ألعاباً يقوم بها رجال محترفون ونساء محترفات ، كالبهاوانة التي يحدثنا عنها زونوفون « مقالاته الدورية » ، والتي تقذف اثني عشر طوقاً دفعة واحدة ثم ترقص رقصة الانقلاب في الهواء في داخل طوق ، « أحيط من جميع جوانبه بالسيوف القائمة » (١٢٥) . وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمام الضيوف بنات يعزفن على القيثارات ، ويعنين ، ويرقصن ، ويغزلن غزلاً دبر أمره من قبل . وكان الأثينيون المتعلمون يفضلون عن هذا أن يجتمعوا ليتناقشوا نقاشاً ينظمه لم رئيس منهم يختارونه بقذف النرد . وكان الضيوف يحرصون على ألا ينقسم المجلس إلى طوائف صغيرة . لأن معنى هذا الانقسام في العادة أن كل طائفة تتحدث مستقلة ، بل كانوا يحرصون على أن يكون الحديث عاماً ،

(*) وكانت هذه اللعبة تتكون من قذف السائل من قده بحيث يصيب جسماً صغيراً على

وكانوا يصغون إلى كل متحدث إذا جاء دوره بالأدب والعطف الذى يسمح به ما هم فيه من مرح . وما من شك فى أن الحديث الطريف الذى يقصه علينا أفلاطون من نسيج خيال هذا الفيلسوف النابه ؛ ولكن أكبر الظن أن أثينة قد شهدت محاورات لا تقل حيوية عن محاورات أفلاطون ، وسواء كان ذلك أولم يكن فإن المجتمع الأثينى هو الذى أوحى إلى أفلاطون بمحاوراته ، وهذا المجتمع هو مرجعها وموضوعها . وفى وسط هذا الجو المنعش المنبه جو النابهين الأحرار تكونت العقلية الأثينية .

الفصل الحادى عشر

الشيخوخة

لقد كان اليونانى يحب الحياة ويكره الشيخوخة ويندبها . على أن هذه الشيخوخة نفسها كان فيها ما يذهب ببعض أحرانها ، فقد كان يعزى الشيخ الهرم أن يرى قبل أن يبلى جسمه حياته الجديدة فى صورة أبنائه وأحفاده فيخدع نفسه ويظنه مخلدا ، كأنه درهم بال عاد إلى دار الضرب ليصهر ويسك من جديد . لسنا ننكر أن فى تاريخ اليونان أمثلة من إهمال الشباب للشيخ أو إساءة معاملتهم إهمالا وإساءة مبغهما الأثرة المقوتة ، وسبب ذلك أن المجتمع الأثينى مجتمع تجارى ، فردى النزعة ، مجدد غير محافظ ؛ وكل هذه عوامل تجعله ينزع إلى عدم الشفقة على الشيخ ، لأن احترامهم من خصائص المجتمع الدينى المحافظ مثل مجتمع اسبارطة ؛ أما الديمقراطية فإن ما فيها من حرية يحل عرى الصلات ، ويركز اهتمام الناس بالشباب ، ويفضل الجديد على القديم . ولهذا نجد فى تاريخ الأثينيين أمثلة عدة لأبناء يستولون على ملك آباءهم فى حياتهم ، وإن لم يثبت العتة على هؤلاء الآباء (١٢٣) ، ولكن سفكليز ينجى نفسه من هذا المصير ، ولا يكلفه هذا أكثر من أن يقرأ للمحكمة أن تنظر فى أمره فقرات من آخر مسرحية له . غير أن الشرائع الأثينية تأمر الأبناء أن يعولوا آباءهم العجزة أو الطاعنين فى السن (١٢٤) ، والرأى العام ، الذى يخشاه الناس على اللوام أكثر مما يخشون القانون ، يفرض على الشباب أن يبجلوا الكبار ويتواضعوا أمامهم . ويروى أفلاطون أن من الأمور المسلم بها أن يظل الشباب الحسن التربية صامتا فى حضرة الكبار إلا إذا طلب إليه الكلام (١٢٥) : وفى الآداب الأثينية صور كثيرة للشباب المتواضع ، منها المحاورات الأولى لأنفلاطون

ومنها مقالات زونوفون الدورية ، وفي هذا الأدب قصص مؤثرة عن وفاة الأبناء للآباء ، كوفاء أرمينز لأبهم ووفاء أنتجوني لأوديب .

إذا حانت منية الشيخ حرص الأحياء أشد الحرص على أن يحبوا روحه ككل ما يستطيعون أن يحبوها من الآلام . فبالجسم يجب أن يدفن أو يحرق ، وإلا فإن الروح تهيم قلقة مضطربة حول العالم ، وتثار لنفسها من أبناء الشيخ المهملين . فقد تظهر مثلاً في صورة طيف ، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث . وكان إحراق الموتى أكثر انتشاراً في عصر الأبطال ودفنهم أكثر انتشاراً في العصر الذهبي . والدفن عادة مأخوذة عن المسيحيين وقد بقيت إلى العصر المسيحي ، ويبدو أن عادة إحراقهم جاءت إلى بلاد اليونان مع الأخيين والدورين . لأن عاداتهم البدوية لا تمكنهم من أن يعنوا العناية الواجبة بالقبور . وجملة القول أن الدفن أو الإحراق واجب يلزم به الأثينيون ، وقد بلغ من حرصهم عليه أن القواد المتصرين في أرجوسى قد أعدوا مسرفة حالت بينهم وبين استعادة جثث موتاهم ودفنها .

وأبقت عادات الدفن اليونانية الأساليب القديمة إلى ما بعد عصرها بزمن طويل . من ذلك ، الجلثة كانت تغسل بالماء ، وتدهن بالعلطور ، وتكفل بالأزهار ، وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب ، ثم توضع أبله بين أسناتها لتؤديها أجراً لكارون صاحب القارب الأسطوري الذي ينقل الموتى في نهر أستيكس إلى مقرهم الأخير (*) . وتوضع الجلثة في تابوت من الفخار أو الخشب . وكان من أمثال اليونان الأقدمين قولهم « إن إحدى قدي الشخصية في التابوت » ويعنون بذلك ما نعينه نحن بهذا المثل

(*) لقد كان من عادة اليونان أن يحملوا الكفة في أترامهم .

نفسه (**). ويتخذ الحزن على الموتى عدة مظاهر مقررة : منها لبس الثياب السود ، وقص الشعر كله أو بعضه ليقدم هدية للميت . وفي اليوم الثالث بعد الموت تحمل الجثة في نعش ويطوف موكب الجنازة بشوارع المدينة ، والنساء من خلف الجثة يبكين ، ويضربن صدورهن ، وقد تستأجر نادبات محترفات يندبن الميت : وتصب الخمر على التراب الذى يغطى القبر لتروى به روح الميت غليلها ، وقد تذبح بعض الحيوانات لتكون طعاماً لها . ويضع مشيعو الجنازة على القبر أكاليل من الأزهار أو ورق السرو (١٢٧) ، ثم يعودون إلى منزل الميت ليحتفلوا بالجنازة . وإذا كان من معتقداتهم أن روح الميت تشهد هذا الاحتفال ، فقد كان من عاداتهم المقدسة « ألا يذكروا عن الميت إلا الخير (***) » . وقد كانت هذه العادة منشأ قانون قديم يفرض على الأحياء ألا يذكروا إلا محاسن الموتى ، ولعلها هى أيضاً منشأ ما يكتب على شواهد القبور من مديح . وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم في مواسم معينة ، ويقدمون لهم الطعام والشراب « وقد تعهد أهل بلاتية بعد المعركة المسماة باسم مدينتهم والتي قتل فيها عدد من اليونان من مختلف المدن ، تعهدوا أن يقيموا لجميع الأموات وليمة سنوية ، وكانوا لا يزالون يوفون بوعدهم هذا بعد أن مضت على المعركة ستة قرون كاملة .

وكانت الروح تنفصل من الجسم بعد الموت وتصبح طيفاً غير مادي يسكن في الجحيم . ويستفاد من أقوال هومر أن الأرواح التي ارتكبت ذنباً شنيعاً أو مرتت من الدين هى وحدها التي تعذب في تلك الدار ، أما سائر الأرواح

(*) ويقابل هذا قول عامة مصر « إن رجله في القبر » .

(**) قارن هذا بقولنا : « اذكروا محاسن موتاكم » . (المترجم)

بعدئذ ، سواء كانت أرواح قديسين أو مذنبين ، فكان مصيرها كلها أن تطوف إلى أبد الدهر حول مملكة بلوتو المظلمة . وقد نشأ في التاريخ اليوناني على تعاقب الأيام اعتقاد جديد بين الطبقات الفقيرة مضمونة أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم ؛ ويصور إسكلس زيوس وهو يحاسب الموتى في ذلك المكان ، فيعاقب المذنبين ، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثانة الصالحين (١٢٩) . ولسنا نسمع إلا القليل عن الجزائر المباركة أو الحقول الإليزية مواطن السعادة الأبدية التي ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال . فالتفكير فيما ينتظر جميع الأموات من مصير محزن نكد ينجم على الأدب اليوناني ويجعل الحياة اليونانية أقل بهجة وانسراحاً مما يجب أن تكون عليه الحياة تحت هذه السماء الصافية .